الفصـل الأول:

القضية وجذور الأزمة

أولاً: القضية ودواعي البحث

قضية هذا الكتاب هي معرفة أسباب تدهور حال الأمة وقصور أدائها، ومن ثمَّ معرفة السبل الموصلة إلى استنهاض همّتها واستعادة قدرتها، والبحث -انطلاقاً من محورية الطفولة- في نجاح مشروع الإصلاح. فإسقاط دور الطفولة وعدم فهمها من أهم أسباب أزمة الأمة، وقصور أدائها وعدم القدرة على تحريك كوامن الطاقة فيها. ويُرجع البحث ظاهرة إسقاط الطفولة من مشروع الإصلاح إلى أمرين:

الأمر الأول: هو الخلل الذي أصاب منهج الفكر الإسلامي؛ إذ تم تغييب البُعد المعرفي الشمولي التحليلي الذي يتعلق بمعرفة "السنن الإلهية"[1] في الطبائع النفسية والكونية، وفي تفاعل عواملها المركبة رأسياً وأفقياً في الزمان والمكان.

وهذه السنن الإلهيـة (القوانين الطبيعية) هي التي يشـير إليها قول النبي ﷺ: "فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا."[2] بمعنى أنّ

---

(١) المقصود "بالسنن الإلهية" في طبائع الأحياء والجمادات هو ما يطلق عليه في الفكر المادي الغربي "القوانين الطبيعية".

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص٣١٩٤، حديث رقم: ٣١٣٢.

للتربية والتنشئة أسساً نفسية هي سنن وقوانين إلهية، وأن طرق التعامل معها تحدد نوعية البناء النفسي للفرد، وتشكِّل معدنه وطاقاته، كالشجاعة والجبن والأمانة والخيانة.. وما إلى ذلك. وهذه الطاقات يتم تسخير اجتماعياً -في اتجاهٍ أو آخر- بحسب الرؤية الكونية الاجتماعية لكل أمة ومجتمع. فجندي الجيش ورجل العصابة كلاهما من الضروري أن يتوافر فيهما الولاء والشجاعة للنجاح في أدوارهما؛ ولكن الجندي يسخرها في سبيل الدفاع عن الأمة، ورجل العصابة يسخرها للأذى والإضرار بالناس.

وقد كان من نتيجة الخلل في منهج التفكير؛ ضعف الوعي بأهمية الدراسة العلمية النظرية والتجريبية للتكوين النفسي للإنسان، ودور مرحلة الطفولة فيه، ونوعية الخطاب النفسي التربوي المناسب لكل مرحلة من مراحل تلك الطفولة، وأثر ذلك في تكوين البناء النفسي للفرد المسلم. وهذا يوفر الدوافع الوجدانية النفسية اللازمة له حتى يكون الناشئة أداةً فعالةً في الإصلاح والتغيير وتصحيح الرؤية الكلية الكونية الاجتماعية، وإزالة الانحرافات الناجمة عنها، واستعادة القدرة على إتقان الأداء ومواجهة التحديات على نحوٍ إيجابي فعّال.

والأمر الثاني: هو غياب الخطاب النفسي العلمي التربوي السليم الذي لا بدّ منه لبناء نفسية الطفل المسلم؛ مما جعله ينمو إنساناً مفتقداً لدفع البعد الوجداني الفعّال واللازم لتحريك الطاقة، وبذل الجهد، وتوفير الأداء الإيجابي الذي يُعَـدُّ شرطاً ضرورياً لامتلاك القدرة على مواجهة التحديات التي تواجه الأمة، بنجاح وفاعلية.

والخطاب النفسي العلمي التربوي السليم ضروري كذلك لتصحيح الانحرافات الموجودة في الذات وفي المجتمع، إنه خلل في منهج الفكر، وعليه؛ فإن هذا الغياب هو الذي يفسر عدم قدرة الإنسان المسلم والأمة المسلمة -حتى اليوم- على الاستجابة لمتطلبات مشروع الإصلاح الحضاري الإسلامي، وتصحيح الانحرافات، وضم الصفوف، وإتقان الأداء، على الرغم من سلامة غايات هذا المشروع ونبله، وتوافر الوعي المعرفي بأهدافه ومتطلباته لدى البالغين من أبناء الأمة.

لذلك فإن من المهم أن ندرك أنّ الأمر الثاني من أسباب عجز الأمة عن إصلاح ما أصابها، المتمثل في "خلل الخطاب التربوي" إنما هو ناجم عن الشق الأول، وهو القصور والتشوه المنهجي للفكر الإسلامي. وقد نجم هذا القصور عن عزل، أو اعتزال، رجال مدرسة الرسالة، وقادة الفكر في الأمة، عن ممارسة الحياة السياسية والاجتماعية العامة، التمترس بها، ودراستها، وفحصها. وأدى هذا إلى ضمور دور المصدر الثاني للمعرفة الإسلامية، وهو المعرفة الإنسانية، في إدراك السنن والطبائع الكونية والإنسانية، والوقائع الزمانية والمكانية، وتسخيرها بشكل عملي فعال في إدارة سياسة الأمة، وتدبير شؤونها، من أجل تحقيق أهداف الهداية الربانية الكلية للإنسان على هدي وعلم وبصيرة.

وغياب مصدر المعرفة الإنسانية في السنن والطبائع أدى في النهاية إلى شيوع عقلية المتابعة الآبائية، ومن ثم العجز عن إدراك طبيعة المتغيرات، وافتقاد القدرة على التعامل معها في تركيب النفس البشرية، وتنميتها، وإعدادها في مختلف مراحل الطفولة.

وخلال هذه المراحل تتشكل نوعية الدوافع النفسية الوجدانية، والمفاهيم المعرفية المنهجية التي تطبع عقلية أعضاء المجتمع ونفسيتهم ووجدانهم، وتصبح فيهم طبعاً أصيلاً يصدر عنه فهمهم واستجابتهم لما يدور حولهم من أحداث، وما يتصدون له من تحديات.

دواعي البحث:

إن دوافع البحث في هذه القضية المعرفية والتربوية هو الإحساس بأولوية الحاجة إلى إعادة بناء النفسية المسلمة، واستعادة قدراتها وطاقاتها الأخلاقية الحضارية الإبداعية؛ بهدف إنجاح المشروع الحضاري الإسلامي، وتحقيق أهدافه النبيلة.

ولهذه القضيّة أبعاد متعددة الجوانب، منها ما يتعلق بالإسلام من حيث هو رسالة إلهية سامية، ومنها ما يتعلق بالإنسانية المعذبة الحائرة المتصارعة، ومنها ما يتعلق بالمسلمين الذين هم في مجموعهم ضعفاء متصارعون وأذلاء مضطهدون مستعبدون.

لا تقتصر أضرار تخلّف الأمة الإسلامية وضعفها وتمزقها وعجزها وقصور أدائها على الأمة وحدها، ولكنّها تحجب أيضاً نور رسالة الإسلام العالمية وهدايته الكلية الروحية الأخلاقية، توحيداً واستخلافاً وإخاءً وسلاماً وعدالة ورحمةً، مما يعوق رسالة الإسلام عن أن تصبح رحم حضارة حقيقية، وسعادة روحية ومادية، وخيراً في الأولى والآخرة.

إن حجب الرسالة المحمدية الإسلامية الحضارية الكونية في عصر نضجت فيه مكونات عالمية دنيا الإنسان وإمكاناته؛ يُعَدُّ جنايةً عظمى يقع وزرها على الأمة الإسلامية كلها عامة، وعلى مثقفيها وقادة الفكر فيها خاصة.

إنّ ما أصاب الإنسانية -بسبب استعلاء الرؤية الكونية المادية الجاهلية العنصرية- من عالمية الحروب والصراعات، والتظالم ومآسي "الاستعمار"، سيكون أشد حدّة وأكثر ظلماً وقسوة. وستتعاظم هذه المظالم بتعاظم وسائل القويِّ وأدواته، في عالم يسوده التمايز، وجشع المادة، وقسوة المنافسة، واستكبار الأقوياء. فاستنقاذ الأمة الإسلامية، ليس استنقاذاً لخُمسٍ مهمٍ من كيان البشرية وتاريخها فحسب، بل هو استنقاذ لمستقبل الإنسانية التي تتهددها وحشية الغاب، ونتن العنصرية، وتعاظم طاقات الخراب والدمار. وإن استنقاذ الأمة الإسلامية ليس قضية مشاعر ورغبات فحسب، بل هو أيضاً قضية عمل وجهد علمي منهجي منضبط منظم، يؤدي إلى تنقية الإسلام مما شاب فهمه وثقافته، على مدى تاريخ شعوب المسلمين، من موروثات تقاليدهم البالية، وانحراف ممارساتهم، وما ألحقوا به من خرافات آبائهم، وشعوذات سالف كهّانهم.

ولتنقية الإسلام والثقافة الإسلامية ومفاهيمها الأساسية لا بدّ من استعادة فهم القرآن الكريم، وإدراك مسيرته في تاريخ الأمة، ومعرفة العوامل والمنعطفات التي شكلت مسيرة الأمة ومسيرة الفكر والثقافة الإسلامية فيها، وبذلك تهتدي الأمة إلى أسباب التلوث الثقافي والانحراف الاجتماعي في مسيرتها، وتتعرف على مجرى هذه التلوثات والانحرافات حتى تستطيع تصحيح المسار.

ثانياً: المنهج

الشمولية والجزئية في المنهج:

ويهدف هذا البحث إلى النظر الموضوعي في السنن الإلهية في الكون والكائنات، وهو منهج إسلامي في غاياته الكلية الروحية والأخلاقية، فهو بذلك منهج كلي شمولي تحليلي تاريخي منضبط يلتزم الغايات الإسلامية الاستخلافية الخيرة.

والشمولية في البحث الاجتماعي أمر ضروري، لكونها تهدف إلى فهم الظواهر وإدراك أسبابها الخفية، وإن النظر الجزئي في مثل هذه المجالات المعقدة التكوين، المتعددة الأسباب، كثيراً ما يضلل الباحث ويخل بأوزان الظواهر ومواقعها وآثارها، ويبسِّطها تبسيطاً مخلاً، تنتج عنه تصورات أقرب ما تكون إلى الخيالات والأوهام.

ولعل صورة العلاقة بين النظر الجزئي والنظر الكلي الشمولي في الدراسات الاجتماعية أشبه بمن يأتي بقطعة من الورق ويسكب عليها شيئاً من الحبر ويقف أمامها متأملاً بعين خياله فيما يتبدى لتهيؤاته من رسوم وأشكال وصور لا وجود لها في الحقيقة، ولا بأس عليه في ذلك ما دام مدركاً أنها ليست إلا حبراً مسكوباً بشكل عشوائي على ورق صقيل.

وكثيراً ما يؤدي المنهج الجزئي في تأملاته وخيالاته -لمن لا يحسن استخدامه ولا يدرك حدود فاعليته- إلى تصورات وهمية، ونتائج اعتسافية لا تمت إلى الواقع والحقيقة بصلة، وقد ينفعل صاحبها ويعجب مستنكراً من

انصراف السامعين عما يَعْرِضُ عليهم، ويستنكر عليهم عدم أخذهم ظنونه، التي يعتقد أنها حقائق، بالقدر اللازم من الجدية.

ويشبه هذه المفارقةَ بين النظر الكلي والنظر الجزئي الحكمُ على الأمور دون اعتبارٍ لملابساتها الزمانية المكانية، فيؤخذ بها على أساس جزئي، وبانطباعات ذاتية لا يسندها نظر كلي، ولا إدراك صحيح لنسبية الدلالات في ملابساتها وتداخلاتها مع العوامل الأخرى المتفاعلة معها. ومن ذلك قول من يقول جزافاً إن مبلغ المليون مبلغ قليل أو مبلغ كبير. فإن كان هذا المبلغ مرتباً شهرياً لآحادٍ من الناس كان مبلغاً عظيماً، أما إن كان المقصود منه ميزانية لهيئة أو دولة فلا عجب أن يُعدَّ ضئيلاً.

ولذلك فإنّ معالجات أزمة وجود الأمة، وضعف أداء شعوبها وأبنائها، وعجز مشروعها الحضاري عن أن يحقق أهدافه السامية، على مدى قرون عديدة، يوجب على الباحث اعتماد أكبر قدر من الشمولية التحليلية فيما يتعلق بظاهرة التمزق والعجز والتخلف التي تعاني منها الأمة.

وضعف الشجاعة الأدبية والنظرة الناقدة، وتمكُّن كوابح الخوف والرهبة من نفوس أبناء الأمة، صبغَ جلَّ معالجاتِها بالسطحية والانفعالية والتزييف، ومنعها من النظر الفاحص والتحليل الجاد، حتى كاد الفكر والمفكر الإسلامي المعاصر يبدوان من كواسر حيوانات العروض البهلوانية التي بلغ بها الخوف والرعب نتيجة الترويض أن تنكر طبائعها، فأصبح العقلُ المسلمُ والفكرُ المسلمُ -بحكم هذه الكوابح الثقافية- هو ذاته حارسَ سجنه، وكاهنَ معبد تخلفه وعجزه.

ولعل في كوابح الثقافة والعقائد الهندوسية، وما ولدته تلك العقائد في نفوس معتنقيها من الخوف والرهبة النفسية على مدى قرون، ما يوضح تلك الظاهرة النفسية؛ إذ نجد من كوابح الثقافة الهندوسية ما يجعل مئات الملايين من فئة المنبوذين في الهند حراساً على بؤسهم وشقائهم.

لَكَمْ يأخذ النفسَ الأسى والحزنُ والألمُ، وهي ترى العديد من رجال الفكر الإسلامي يحجمون عن إبداء الرأي إلا في حدود المعتاد والمتوارث، وذلك بسبب تمكُّن الكوابح الثقافية التراثية من أنفسهم، رهبةً وخوفاً من ردة الفعل النفسية، غير العاقلة، التي تكررت وتمكنت على مر الزمن من عقلية جمهور أمتهم، والتي لن تسمح بالحوار الرصين الذي يفسح المجال لرؤى اجتهادية تجديدية ترتكز إلى الأسس والثوابت الأصلية في العقيدة والمقاصد، لا إلى موروثات العصور السالفة وما شاب كثيراً منها من التحيزات والتحزبات الغابرة.

لا بدّ للمفكر المسلم من التسلح بالشجاعة في إبداء الرأي، والتجديد في الفكر والنظر، ليواكب ما يطرأ في واقع الحياة من تغيّر، وما يتيحه تراكم المعارف والخبرات من الإمكانات، وما يطرحه من التحديات، وما يفرضه من التغيرات، حتى يتمَّ تنزيل المبادئ والقيم بشكل عملي فعّالٍ على واقع حياة البشر، وفي نسيج علاقاتهم ومعاملاتهم، وبناء مؤسساتهم.

الشمولية وبناء الأولويات:

والبحث الشمولي التحليلي بطبيعة الحال لا يأخذ -دون دليل- بأحادية العوامل المؤثرة في أي ظاهرة اجتماعية، بل يرى أن الأصل في التحليل هو

تعدد هذه العوامل، وأنّ من التبسيط المخل الاعتمادَ الجزئي -لأسباب ثقافية أو عاطفية، أو رؤية انتقائية أو خيار عشوائي- على عاملٍ واحدٍ بعينه، على مجموعة من العوامل والأسباب، مع تجاهل ما عداها من الأسباب الموضوعية المهمة المتعلقة بمختلف جوانب تلك الظاهرة. واعتماد نتائج النظر الجزئي التي تشحن عادة بالرموز العاطفية الموروثة لقهر عقول المخاطبين وضمائرهم؛ ويضع العراقيل المنهجية، ويحول دون النظر الناقد الجاد، والحوار الهادئ الرزين، لإدراك كنه القضايا، وتنوير العقول، وحل المشكلات، ومواجهة التحديات.

ومعرفة العوامل المهمة المؤثرة في أية قضية أو في أي مجال، ومعرفة تداخلاتها الرأسية والأفقية، أمرٌ على أكبر قدر من الأهمية لفهم الظاهرة الاجتماعية، وتتبع آثارها، ووضع الحلول الفاعلة للتعامل معها، إلا أن ذلك لا يمنع من ترتيب الأولويات في التعامل مع هذه العوامل، وفي ترتيب حل إشكالاتها.

بل إن من المهم في دراسة أية قضية أو ظاهرة اجتماعية، ليس النظر إلى مجموع العوامل المؤثرة فيها فقط، أو معرفة نوع التفاعل بينها، بل لا بدّ من التفرقة بين الأسباب الجذرية والمضاعفات المترتبة عليها؛ إذ إنّ كثيراً من المفكرين يُؤْخَذون بالمضاعفات، ولا يلقون بالاً -بالقدر الكافي- للأساسيات، فتدور رحى جهودهم في دوائر غير متناهية من العلاجات السطحية العرجاء العقيمة المكرَّرة. ومَثَلُ هؤلاء كمَثَل من يستنفد طاقته متفانياً في بذل الجهود المضنية من أجل علاج مرضى البلهارسيا؛ دون أن يلقي بالاً إلى أصل المرض

ومنشئه بمكافحة ما يلقى في مصادر المياه من النفايات، التي تلوث الماء وتجعله مصدراً متجدداً للإصابة بالمرض وانتشار العدوى. فالتصدي للمضاعفات أمرٌ لا يغني عن التصدي للأساسيات، وإنّ التصدي للاستعمار والعولمة وما يلحق بهما من الهيمنة التسلطية العالمية الظالمة، يجب أن لا يعني مطلقاً التقصيرَ من جانبنا في التصدي -وبالدرجة الأولى- لأسباب القابلية للاستعمار، والمواجهة الجريئة لأسباب القصور الذاتي والعجز والتخلف في كيان الأمة.

وهكذا، فإنّ من المهم لنا في هذا البحث إدراك الصورة الكلية، ومعرفة العوامل الأساسية المؤثرة في أزمة تخلف الأمة وتمزقها وعجزها، والوقوف على نوع التداخل بين هذه العوامل، وإدراك عناصر تبادل التأثر والتأثير فيما بينها، رأسياً وأفقياً، في الزمان والمكان، وحصر المضاعفات الداخلية والخارجية التي ترتبت عليها وزادت من حدتها.

والإدراك الشمولي السليم لكل هذه العوامل المؤثرة يأخذ في حسبانه الدلالة الحقيقية الهامشية للمؤثرات العابرة التي لا تغير من الاتجاه الأساسي للخط البياني صعوداً أو هبوطاً؛ إذ إن مثل هذه الذبذبات العابرة -في كثير من الأحوال- يُغَضُّ الطرفُ عنها في رصد الحركة الكلية للخط البياني ومعرفة وجهة الحركة الكلية فيه.

وأمر هذه الذبذبات والاهتمام بها لـه موضعه في مجال التطبيقات الميدانية الآنية، التي لا تتعلق بمثل هذه الدراسات والأبحاث، والتي ترصد توجهات حركات الحضارات صعوداً وانهياراً. فالغوص في خضم تفصيلات هذه الذبذبات يعتم الرؤية ويضلل الفهم، ويغرق الفكر في رمال متحركة

وتحركات واهمة، ممّا يدخله في بحث عقيم أشبه ما يكون باستباق الأحمق ظله ومطاردة الهر ذيله.

نحن لا نجافي الحقيقة إذا قلنا: إن فجوة "القدرة" الحضارية و"الأداء" المتميز -مع مرور الأيام- تزداد تفاقماً واتساعاً بين الأمة المسلمة والأمم المتقدمة، وذلك بسبب تسارع إمكانات العلوم والتقنيات الحديثة لدى تلك الأمم، مما يمكنها من إحكام قبضة التحكم والقهر والتخلف على كيان الأمة ومقدراتها، ويزيد بذلك نصيب أبنائها من الجوع والجهل والمرض والتخلف.

وفي عصر التحدي الغربي وانحطاط الدولة العثمانية، آخر كبريات الدول الإسلامية، نجد أن جهود الإصلاح والنهضة في العالم الإسلامي قد تعددت وتنوعت على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون، بدءاً بحركة الإصلاح الديني على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب (توفي ١٧٩٢م) في جزيرة العرب، وشاه ولي الله (توفي ١٧٣٦م) في الهند، والسلطان العثماني سليم الثالث (توفي ١٨٠٧م)، وما تلا ذلك من حركات الإصلاح الديني على يد أبي عبد الله محمد بن علي السنوسي (توفي ١٨٥٩م) في ليبيا، ومحمد المهدي في السودان (توفي ١٨٨٥م)، وخديوي مصر محمد علي باشا (توفي ١٨٤٩م)، والوزير العثماني خير الدين باشا التونسي (توفي ١٨٩٠م)، وسير سيد أحمد خان بالهند (توفي ١٨٩٨م)، وجمال الدين الأفغاني (توفي ١٨٧٩م)، والشيخ الإمام محمد عبده (توفي ١٩٠٥م)، والشيخ عبد الرحمن الكواكبي (توفي ١٩٠٢م)، والسيد محمد رشيد رضا (توفي ١٩٣٥م)، وحسن البنا (توفي ١٩٤٩م)، وابن باديس (توفي ١٩٤٣م) وابن عاشور (توفي ١٩٧٣م).

وتبع ذلك ما رافق حركات الاستقلال في كثير من البلاد الإسلامية، منذ أواسط القرن العشرين حتىٰ اليوم، من الجهود العمرانية المدنيـة، والحركات القومية العلمانية، وما نجم عن تلك الأفكار والحركات والجهود من تغيُّـرات فكرية وثقافية وعمرانية، إلا أنها في المحصِّـلةِ لم تتمكن كلها -فيما هو ملموس- من أن تنجح في تشخيص الأمراض الحقيقية للأمة، ووصف العلاجات اللازمة لانتشالها من وهدة التخلف، ومساعدتها في مواجهة تحديات العصر الرهيبة المتنامية.

وعلينا -لتحقيق ذلك- أن ندرك منطلقات هذا الفكر في الوقت الحاضر. وهي منطلقات ترجع في أساسها الفكري المباشر إلىٰ منطلقات الشيخ عبد الرحمن الكواكبي وفكره في كتابيه "أم القرىٰ" و "طبائع الاستبداد". وهو يعرض في (أم القرىٰ) جملة من مبادئ الإسلام الكبرىٰ، وقيمه الأساسية السامية، وفي مقدّمَتها مبدأُ التوحيد، وقيم العدل، والتضامن، والشورىٰ. ويلقي في (طبائع الاستبداد) اللوم فيما أصاب الأمـة من التخلف والانحطاط علىٰ كاهل الحكومات، وما تتسم به القيادات من الاستبداد والتبديد والفساد.

ومن المهم منهجياً ملاحظة أنه علىٰ الرغم من مضي أكثر من مائة عام علىٰ أطروحات هذين الكتابين، ومُضي أكثر من ثلاثة أرباع القرن علىٰ قيام الحركات الجماهيريـة الإصلاحية السياسية الإسلامية التي تستند إلىٰ هذه المقولات، وعلىٰ الرغم من توالي جهود الحكومات المدنية والحركات العلمانيـة، فإننا لم نجد الأمـة أقربَ إلىٰ بغيتها الآن مما كانت عليه قبل انطلاقها.

والسؤال المنهجي: لماذا لم تنجح هذه المنطلقات، ولماذا لم تفلح تلك المجهودات، على مدى هذا الزمن كله، في أن تحقق جل الغايات المرجوة منها؟

إن البحث العلمي المنضبط systematic هو المأمول أن يؤدي -بإذن الله- إلى تكامل الحلول، ودعم الجهود المبذولة لمواجهة الأزمة، وتخطي العقبات لتحقيق المطلوب وإصلاح الخلل. ولا يعني ذلك أن كل ما تحقق حتى اليوم كان بالضرورة خاطئاً، لكنه بكل تأكيد لم يكن كافياً لإحداث التغيير والإصلاح المطلوبين.

وإنّ جهود البحث والنظر والتنقيب الفكري المنهجي يجب أن تستمر في أداء دورها، وبعمق أكبر، وبجهد أعظم، وبشجاعة أوفر، بدون التفريط في الأساس المنهجي العقلي العلمي الإسلامي الناقد، حتى يستطيع الباحث أن يدرك مواقع الثوابت ومواقع المتغيرات، بعيداً عن الدعاوى الواهمة أو المنتفعة أو المغرضة. وهذا يعني منهجياً حيال القضية التي نحن في صددها أن هناك عاملاً أو عوامل ما زالت مجهولة يتوقف عليها تفعيلُ بقيةِ الجهود وفاعلية بقية العوامل، مما يعني أيضاً وجوب إعطاء الجهود الفكرية الحرية الكافية للبحث، وأن تنال القضية أولويّتها من جهود المفكرين والعاملين في هذه المرحلة الحرجة من حياة الأمة.

أهمية إدراك خصائص منظومة الذات العقدية والفكرية:

إن أول ما يلحظه الباحث في كثيرٍ من منطلقات النهضة ومشاريع الإصلاح المتأخرة في الأمة -بغض النظر عن الأسباب والدوافع- أنها انطلقت منذ البداية من التقليد والمحاكاة، إما باتجاه التاريخ، مع خطاب مشحون

بالرموز العاطفية، أو باتجاه تقليد الأجنبي الغالب. ومن الواضح أن فكر التقليد والتلفيق والمحاكاة لم يُفَعِّل الطاقات، ولم يحرك الدوافع، ولن يستطيع. ويبقى الأداء المسلمُ قاصراً، والكيان المسلم ضعيفاً عاجزاً مهضوماً مقهوراً ما بقيت الأمة وتوجهات مشاريع نهضتها منطلقة من التقليد والمحاكاة، لأنهما لا يعيدان صفحات التاريخ، ولا يحركان كوامن الطاقة.

أخطاء التلاقح الفكري بين الأمس واليوم:

لم تستطع الأمة في باكورة نشأتها توفير الجهد الهائل اللازم لإتمام الصهر الثقافي والتربوي للشعوب الوافدة على كيانها؛ بسبب الكمّ الهائل والسرعة الفائقة، وتسارعِ وقعِ الأحداثِ التي توالى بها اتساع الرقعة.

في كثير من الحالات أخطأ فكرُ الأمة، أو لم يستطع أن يقدر الأولويات ويوفر المطلوب في تلك المرحلة المبكرة عند التعامل مع موروثات شعوبها في القبليات والشعوبيات، وفي الأساطير وفلسفات الإلهيات. وكان لا بدّ في النهاية من أن يكون لذلك أسوأ العواقب التي ستستنفد طاقة الأمة، وتشوه رؤيتها، وتورثها السفسطات والحلوليات والتمزق والفتن وانحراف المؤسسات؛ ولتضعفَ في النهاية طاقتها العقدية والفكرية، وتفقدَ الدليلَ العقدي والإطار المنهجي الفكري الذي منحها التميُّـزَ والتفـرُّدَ والقدرة على التجدد وتصحيح مسار حركة المجتمع وتطوير مؤسساته.

ولتوضيح مفهوم خصوصيات الأمم وأبعادها الحضارية، فإن من المهم أن ندرك أن كل شيء في الوجود هو منظومة system بدءاً من الخلية إلى الذرة إلى المجرة. وكلّ منظومة لها خصائصها، وقواعد عملها، وحدود طاقتها، وإذا لم

تراقَب تلك الخصائص والقواعد والحدود فإن المنظومة تتحطم وتنهار.

والمثال الأقرب الملموس هو جسد الإنسان. فهو منظومة لها خصائصها وقواعدها وحدود طاقتها واعتباراتها، فلو استنشق الإنسانُ قدراً من الأكسجين من الأنف كان في ذلك حياة لـه، أما إذا أخذ منه حقنة -ولو كانت سنتيمتراً واحداً- في الوريد فإنها تقتله في الحال. فليست العبرة فيما تأخذه المنظومة أو تتركه فقط، ولكنها تكمن أيضاً في الكيفية التي تؤخذ بها الأمور وتتمثلها المنظومة. وكذلك الأمر بين الثقافات والحضارات، فإنه يجب ملاحظة الخصائص والقيم والمقاصد فيما يُؤخَذ وفيما يُرَدّ، وعلى أي الوجوه يُؤخَذ أو يُرَدّ، وهو الأمر الذي لم يسبر غوره المفكرون المسلمون بالأسلوب العلمي الفاحص الدقيق، ولم يولوه ما يستحقه من الأهمية والبيان.

والأمة اليوم، في التقاء فكرها الضامر ونظامها المهترئ بفكر الأجنبي المناجز، بمؤسساته المتطورة المتجددة -وهي ما تزال إلى حد بعيد غير مدركة بشكل علمي موضوعي طبيعة منظومة فكرها وخصوصيات كيانها-[1] أصبحت منبهرةً بقدرة مناجزيها والغالبين على أمرها، مما حال بينها وبين أن تدرك طبيعة منظومة فكرهم وخصوصيات كينونتهم.

إن الانسجامَ والتناغمَ بين ضمير الأمة الإسلامية ووجدانها من ناحية، وطبيعة فكرها وغايات حركتها ودليل نظامها من ناحية أخرى، أمرٌ ضروري

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. "الأمة بين شريعتين"، **مجلة إسلامية المعرفة**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٢٨، ٢٠٠٢م، ص١٢٣-١٤٨.

لتفجير طاقاتها وإثارة الحماسة في نفوس أبنائها. وإن عهدَ الرسالة وصدر عهد الخلافة الراشدة مثالٌ منيرٌ ومرشدٌ في تاريخِ الأمة.

أما الفكر الإسلامي المعاصر فيفتقد دليل الرؤية، ويتخبط في أوحال التفاعل العشوائي دون أساسٍ منهجيٍّ في تفاعله مع الحضارة الغربية، على غرار التفاعل العشوائي غير المنهجي الذي حدث في العصر الأموي والعباسي بين منظومة الفكر والحضارة الإسلامية ومنظومة الفكر والحضارة الإغريقية، التي كانت قد أفلستْ واستنفدت دورها. وذلك التفاعل، وإن أفاد الحضارة الإسلامية في تعلُّم إرث الصناعات الغابرة وحصيلة علومها الفيزيائية، إلا أنه أضرَّ بروح الحضارة الإسلامية في الجوانب الروحية والعقدية التوحيدية الاستخلافية والمنهجية السببية، وبطَّأ حركتها، وانتهى بها إلى غبشِ الرؤية الكونية الإسلامية، وسفسطةِ الإلهيات، والمنطقِ الصوري، وضياعِ المنهج الإسلامي العلمي التجريبي.

وهكذا غلب على الأمة إرث الإسرائيليّات وفكرُ الخرافة والأسطورة والشعوذة، فانتهت إلى المواتِ والخمود، وهو الأمر الذي يتكرر اليوم في صورة أخرى، بين منظومة الفكر والحضارة الإسلامية ومنظومة الفكر والحضارة المادية الغربية، دون أن ننتبه إلى الخطأ المنهجي الفادح الذي سبق أن ارتكبناه، ودون أن نأخذ من ذلك الدرس ما يستحقُّ من العظةِ والعبرةِ.

الفكر التربوي والتغيير الاجتماعي:

إنّ الغاية من هذا البحث هو أن توضع قضية الطفولة، ودور الفكر التربوي بشأنها -لكونه منطلقاً أساسياً في تحقيق التغيير الاجتماعي- على مائدة

الدراسة والفكر والنظر، وما يستتبع ذلك من قضايا تنقية الثقافة الإسلامية وتنقية مدخلاتها التربوية، واستكمال الفكر الإسلامي لأدواته المنهجية في دراسات السنن والطبائع والواقع في الزمان والمكان، وفي فهم النص والتاريخ، وإدراك ما يقدمانه من توجيه ودروس وعبر، بشكل يناسب الزمان والمكان.

وهكذا تسهم هذه الدراسات بشكل إيجابي فعَّال في تكوين عقلية الطفل المسلم، وفي بناء كيانه النفسي والوجداني، فيصبح خالصاً من التشوهات والانحرافات والشعوذات التي تفسد الرؤية الكونية للمسلم، وتُضعفُ الروح العلمية والطاقات الإبداعية لديه، وتقضي على معاني العزة والكرامة والإخاء والنصرة في تكوين نفسيته وعقليته.

إنّ الطفولة، بإدراك دلالاتها العلمية النفسية في إحداث التغيير الاجتماعي، هي البعد الغائب الأساس في إحداث التغيير النفسي الجمعي الضروري لاستعادة الرؤية، وتحريك الطاقة الوجدانية، ومواجهة التحديات.

ومهمة هذا البحث هي إلقاء الضوء على هذا البعد الغائب، وتوضيح أبعاده وتفاعلاته مع بقية العوامل، ومعرفة السبل العملية العلمية لاستكمال هذا النقص، وسد هذه الثغرة، بهدف التكامل مع ما يبذل من الجهود لبناء مشروع إصلاح الأمة ونهضتها، واستكمال أدواته، خدمةً للأمة والإنسانية، وتجليةً لهدي رسالة الإسلام في نظام القرية العالمية المعاصر.

إن عوامل القصور التي غلبت على نفوسنا قد جعلتنا في مؤخرة الركب، لذلك أرجو أن يحسن القارئ فهم غاية النقد، لأنّ البحث إنما يهدف فقط إلى

استكمال النقص وتكامل الجهد، وإن تقديرنا وإجلالنا لما سلف، أو رغبتنا في شدِّ عزيمتنا وحسن عرض بضاعتنا، يجب ألاّ تحول دون معرفة وجوه القصور فيما سلف من أمرنا، حتى تُقالَ العثرةُ، وتُسَدَّ الثغرةُ، ويتحقق المأمولُ إن شاء الله تعالى.

ومن الخطأ محاكمة الماضي بواقع الحاضر ومعطياته؛ بل يجب محاكمته إلى واقع زمان أحداثه، حتى يأتي التقدير حقيقياً ومتوازناً، وإنّ لنا أن نقدر بكل إجلال وإكبار إسهاماتِ الحضارة الإسلامية وعطاءَها في مجرى تاريخ الإنسانية، على أن نحاكمها في ظل واقعها وظروفها، وإن قصرت عما نريده اليوم منها، أو عما كان يمكن أن تقدمه للإنسانية من عطاء.

لقد مثَّلت الحضارة الإسلامية فترة مضيئة، بكلّ المقاييس، وقفزة عملاقة في تاريخ الإنسانية، تشهد لذلك آثار تلك الحضارة وما أحدثته في حياة شعوب الإسلام من تغييرات، وما أسهمت به في تراث الحضارة الإنسانية المعاصرة من أسس ومناهج ومنطلقات. بل إنّ شروخ الضعف والوهن في بناء الحضارة الإسلامية حدثتْ بسبب تنكُّب هذه الحضارة عن منطلقات هدي الإسلام في شؤون الروح والأخلاق والاجتماع، وهو ما نسعى اليوم لتداركه واستعادته.

ثالثاً: جذور الأزمة

إن الأمة في أزمة، وإنها من المحيط إلى المحيط لا تنقصها الموارد المادية، ولا الموارد البشرية، فهي تبلغ بليوناً ومائتي مليون نسمة، أو ما يعادل خُمس

كامل كيان البشرية، وهي لا تنقصها القيم والمبادئ، ولا الغايات والمقاصد السامية التي يزخر بها الإسلام.

إذن ما الذي أصاب الأمة؟ وكيف انحرفت مسيرتها؟ وكيف تَعوَّق فِعْلُ دفع روح الإسلام فيها حتىٰ انتهت إلىٰ ما انتهت إليه من العجز والتخلف والضعف؟ ولماذا لم تنجح علىٰ مدىٰ القرون محاولات الإصلاح ومشاريع التغيير في استعادة عافية الأمة وتعديل مسارها؟

والجواب أنه لا يمكن أن يكون ذلك قد تم بسبب عدم الرغبة في الصلاح والإصلاح، فقد بُذِل الكثيرُ، وما يزال يُبذل، ولكن من الواضح أنّ عوامل التعويق والانحراف كانت كثيرة وعميقة الجذور، وأن سرعة وتيرة الأحداث كان سريعاً، وعلىٰ وقعٍ أكبر من الطاقة المتوافرة لملاحقته، بله تجاوزه أو الإسهام في رسم مساره؛ فأصبح الأداء أقرب إلىٰ ردود الفعل التي لا تسمح بالتحكم في الظروف، ولا بإمعان النظر في القضايا، ولا بفهم طبائعها ومتطلبات مواجهتها.

وإذا كان هدي الإسلام ليس لقوم بعينهم، ولا لزمان بعينه، ولكنه هداية للإنسانية جمعاء حتىٰ نهاية الوجود الإنساني علىٰ هذه الأرض، فإنه يصبح حقاً لكل فرد وكل قوم وكل جيل أن ينهل منه علىٰ قدر ما يطيق وما تؤهله نفسه للإفادة منه.

لقد كان عصر الرسالة تجسيداً لها، وتطبيقاً لمبادئها وقيمها في واقع حياة البشر، وإقامة الحجة علىٰ الناس كافة بإمكانية تطبيقها، وإقامة مبادئها وقيمها في الإخاء والحق والعدل والتكافل، في حياة البشر كافة.

إنها ليست مجرد أفكار وفلسفات وأحلام ورؤىٰ وخيالات، علىٰ غرار ما يأتي به الفلاسفة والحكماء المثاليون، بل هي رسالة حق وهداية إلىٰ البشرية، توضح لها الكليات، وتمدها بالقيم والمبادئ التي تهدي سعيها، وتنير طريقها، وتسدد فِعالها، وتصبغ -بقصد الخير- وجودها، يستوي في ذلك كلُّ البشر، وكلُّ الأجيال.

طاقة الدفع الإيماني الحضاري والتراكم المادي العمراني:

حين ننظر في مسيرة الدفع الإسلامي الأول، وما فجرته الرؤية الإسلامية وجيل الرسالة في كيان الأمـة الإسلامية والحضارة الإسلامية في التاريخ، وكيف تعوّقت وتعثرت مسيرة الرسالة بعد ذلك في واقع الأمة، وما تزال، يبدو لنا الأمر وكأن قيم الرسالة، ورؤيتها وروحها في الاستخلاف بالإخاء والعدل والبذل وإتقان الأداء، قد تعطلت في واقع الأمـة الإسلامية اليوم، أو كادتْ.

وهنا يجب ألا نخلط في فهم تاريخنا بين قوة الدفع النوعيـة من جهة، وتراكمات البناء والعمران والصنائع المادية من جهة أخرىٰ. وعلىٰ الرغم من أنّ قوة الدفع قد تكون في تناقص فإنّ تراكمات العمران والصنائع -لأمدٍ قد يطول- لا بدّ أن نجدها في تزايد علىٰ الأغلب، بفعل الوقت والجهد والموروث.

وتستمر هذه الصورة المضللة في فهم التاريخ إلىٰ أن يبلغ الضعف والظلم والانحراف والفساد في كيان الأمـة قدراً يجفف قاع المنابع، ويقضي علىٰ منطلقات روح المبادرة والإبداع والتجديد؛ فينهدم البناء، وتتصدع العرىٰ، وتنهار المؤسسات، وتندثر المعالم، وهناك فقط تتضح للناظر -دون جهدٍ-

رؤيـةُ العلاقة بين ضعف روح الدفع والنماء والتجديد من ناحية، وانحراف المسيرة وفساد الممارسات وانحطاط الحضارة من ناحية أخرى.

وإذا كان انحرافُ مسيرة الأمـة الإسلامية عن خط الأداء الأمثل الذي رسمته تطبيقات الرسالة الإسلامية، بعد غياب الرسول ﷺ وانتهاء عهد الرسالة ودولة جيل الصحابـة، قد بدأ مبكراً؛ فالسبب في ذلك أن الناسَ من بعد جيل النبوة والرسالة، قد تُركوا لجهدهم في تمثل الرسالة، وأن كلَّ جيلٍ مرهونٌ بطاقة أفراده، وفق معطيات زمانهم ومكانهم وإمكاناتهم، ومتغيرات أحوالهم وتحديات عصورهم.

وكان هذا الأمر واضحاً في المسيرة التاريخية لرسالة الإسلام، فقد كان التناسب فيها عكسياً: بين قوة دفع الرسالة ونوعية الأداء من ناحية، وتراكم معالم عمران الأمـة وتراثها ومظاهر الحضارة فيها من ناحية. والمقصود بالتناسب العكسي أن قوة أي طرف من الأطراف ونموَّه يعني ضَعفَ الطرف المقابل وانكماشه، أي إنه في الوقت الذي تضعف فيه روح الإسلام يزداد توسع الملك وازدهار الصنائع والعمران.

لقد نزلت رسالة الإسلام على العرب وهم في حالةٍ من البداوة والجهالة؛ حيث لا دولةَ لهم ولا أنظمـةَ ولا عمرانَ ولا علومَ ولا صنائعَ، على عكس ما جاور الجزيرة العربية من حضارات الفرس والروم والهند وسالف حضارات الرافدين وبلاد مصر والشام.

وفي الوقت نفسه كانت دول الفرس والروم والهند وحضارتهم تفلس وتغرق في المفاسد والمظالم والانحلال والتدهور، فجاءت رسالة الإسلام إلى

العالمين، برؤيتها الكونية التوحيدية الخالصة السامية، وبقيمها ومبادئها ومفاهيمها الحضارية، فأوجدت آفاقاً واسعة، ومناهج علمية سننية راسخة، تشكل في مجموعها أسساً قوية لدفع الاجتماع الإنساني، وفتح أبواب جديدة ومبدعة في مجالات العلوم والمعارف الإنسانية والكونية، فأخرجت أمةَ العرب، وأخرجت معها الإنسانية، من الجاهلية والبدائية، ومن الفساد والمظالم، إلى مرحلة جديدة من الحضارة في تاريخ الإنسانية، حضارة تلتقي فيها -بتكامل وانسجام- الروحُ والمادةُ، والعقلُ والوجدانُ والعلمُ، والغيبُ والشهادةُ.

وكان من الطبيعي أن يكون زخم روح الرسالة الإسلامية عند منابعها في عهد الرسالة وجيل الأصحاب قد بدأ قوياً كاسحاً؛ مما مكّن دولتها من اجتياح رقعة العالم المتمدن في أقل من ثلاثة عقود. ولقد غيرت من حال الشعوب التي حكمتها تغييراً عميقاً بلغ حداً غير مسبوق من التأثير والانبهار، كما غيّرت لغاتهم في شمال الجزيرة العربية وشمال إفريقيا وشرقها لتصبح اللغة العربية القرشية لغتهم الأم.

وإذا كان الدفع والتغيير الإسلامي للروح والعقل والوجدان عظيماً، فقد كان من الطبيعي في عالم الجزيرة البدائي أن يكون الأثر العمراني في البداية محدوداً، وأن يتزايد مع مرور الزمن ودخول الشعوب من أبناء الإمبراطوريات والحضارات الدائلة في الإسلام، وأن تتسع رقعة الملك وتزدهر الصناعات والعمران.

ومع مضي الوقت، وبسبب ما حملته الشعوب التي دخلت الإسلام من آثار تراثها وتقاليدها وفلسفاتها ودياناتها السالفة، كان من الطبيعي أيضاً أن

تضعف الروح الإسلامية، وينال الغبش والتلوث الفكري صفاء عقائدها ورؤيتها الكونية وثقافتها ومناهج فكرها، وأنظمة حكمها وعلاقاتها الاجتماعية، وأن يَعْلَقَ بها كثير من ممارسات الظلم والجور والاستبداد والخرافة والضلالات، فأصبح فكر شعوب الأمة ونظمهم وممارساتهم خليطاً من أساسيات الإسلام، ومما حملوه معهم من ثقافات، هي بقايا سالف ممارساتهم وتراثهم وعاداتهم وإحنهم وعنصرياتهم.

كيف بدأ ضعف الطاقة الإيمانية الأخلاقية:

يذكر لنا التاريخ، بما لا مجال للشك فيه، أنّ بدايات الانحراف قد ظهرت في العصر اللاحق لعصر الرسالة، حيث لم يعد الأصحاب الذين صفت معادنهم وسمت غاياتهم وخلصت مقاصدهم يمثلون جحافل جيش دولة الخلافة، وحرّاس نظامها، ومرتكز قاعدتها السياسية.

وهذا التغيير الجوهري، الذي أصبح الأعرابُ فيه جيشَ الخلافة وقاعدتها السياسية، هو الذي حوّل الخلافة بعد العهد الراشد إلى "ملك عضوض" بُنِيَ في كثير من جوانبه على قواعد الاستلاب وقهر العصبيات القبلية. وزاد الطين بلةً ما لحق بالأمة وثقافتها مع مرور الزمن من الشعوبيات والفلسفات والخرافات. لذلك كان من الطبيعي أن تتفاوت أجيال ما بعد الرسالة على مدى القرون في مدى تمثلها لروح الرسالة، وما انطوت عليه من طاقة على حمل الرسالة، والإفادة منها بحسب حالها والظروف التي مرت بها، وبحسب قدرتها على التغيير والتكيف والاجتهاد والتجديد؛ بما يستجيب لمتطلبات هداية رسالة الإسلام ومبادئه وقيمه

السامية، وعلى ضوء ما يواجه الأمة في مختلف المراحل من التحديات.

لقد كان من أهم أسباب الانحراف السريع عن رؤيـة الإسلام الكونية، وعن قيمـه ومبادئـه السامية، وما أدى إليه ذلك من هدم نظام الخلافة الراشدة، قصور الجهود عن إعادة تربية أبناء القبائل البدوية التي كوّنت جيش الفتح حين ضعف جيل الرسالة والصحابة، وانحلّت قبضتهم عن جيش الدولة، وما صاحب ذلك من أحداث وتغيُّـرات جسيمة تمثَّـلت بدخول شعوب وقبائل وأمـم كثيرة في الإسلام، وبزخمٍ وسرعةٍ هائلةٍ تفوق طاقـة الدولة وجيل الأصحاب في تدبرها ومواجهـة متطلباتها في "التربية" والتغيير.

كان الجنود من القبائل والأعراب قد تحلّوا بالقوة والشجاعة في الجهاد والذود عن حياض الأمة، ولكن لم تتوفر لهم الفرصة لإعادة تربيتهم، فتغيرت بهم طبيعة الجيش وطبيعـة الشعب، وطبيعـة القاعدة السياسية، لتجريَ الأيام بأحداث انقلابيـة متسارعة، كان لا بدّ لها من أن تنهيَ عهد الخلافـة الراشدة، وتنهيَ نمط حكمـه وتنظيمـه، وأن يستقر الأمر في النهاية لقيادات جديدة تمارس -ضمن هياكل بناء مجتمع الإسلام ومؤسساته- كثيراً من موروثات المفاهيم والتقاليد والظلامات والعصبيات والعنصريات القبلية والشعوبيات التي نشِّئوا فيها، ورُبُّـوا عليها.

وهكذا يستقر الأمر لملوك بني أُمية بسبب تغير القاعدة السياسية والعسكرية. ومما يوضح هشاشة ما زعم من انحرافات وأخطاء نسبت إلى الخليفة عثمان بن عفان أو إلى الخليفة الراشد علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن منهاج حكم معاوية ونظام ملكه الذي ارتكب من الأخطاء ما هو أضعاف ما

نسبته إلى الخلفاء الراشدين، ومع ذلك استقر لمعاوية الأمر مما لا يفسر زوال خلافة الأصحاب الراشدة إلا تغيير القاعدة السياسية والعسكرية التي جنّدت من جيش الفتح من الأعراب وجموع القبائل.

لقد كان الحدث التاريخي المتمثل في انهيار نظام الخلافة الراشدة -ضمن معطيات أحداث ذلك العهد- هو الذي أحدث الشرخ الأول في دولة الإسلام ونظامه، بكل ما حمله ذلك الحدث من آثار عقدية وسياسية واجتماعية واقتصادية أصابت روح الإسلام ورؤيته، وعكَّرتْ صفاء قيمه ومبادئه، في الوقت الذي كان يتعاظم فيه ملك دولة المسلمين بالفتح، وتتسع فتوحاتها، ويزداد عدد رعاياها من ورثة الصنائع وأرباب فنون الحضارات والإمبراطوريات الدائلة في شمال الجزيرة وبلاد فارس والهند والروم.

السياسة والأخلاق والدين: انقسام القيادة ونشأة المدرسية النظرية:

وحين نتتبع مسيرة التوجه الفكري والعقدي للأمة، مع تطور هذه الأحداث فإننا نجد الجيل الأول قد تولاه الرسول ﷺ بالتربية والتهذيب، وتولاه الوحي الإلهي بالتوجيه والترشيد، ولذلك تمتع برؤية وروح وقدرة حضارية عالية مازجت ما جبلت عليه قبائل العرب من القوة والشجاعة والنبل والكرامة، فأخرجت جيلاً حضارياً فاعلاً، وكانت عظمة إنجازاته بقدر سلامة تكوينه التربوي، وسمو مفاهيمه العقدية والسياسية الأخلاقية.

وبإسقاط الخلافة الراشدة وغلبة قادة القوى القبلية، أخذ الدور القيادي لرجال مدرسة الرسالة يتضاءل، ومعاقلهم تدك وتدمر، وشيئاً فشيئاً انتهى الأمر، بعد مئة عام من الصراع الدامي، إلى تهميش دورهم السياسي، وليتحولوا

تدريجياً بعده إلى فئة نظرية مدرسية منعزلة في المساجد والزوايا والمدارس، وتتسم بالطهارة والزهد، في الوقت الذي أخذت تتزايد فيه الممارسات والعادات القبلية والشعوبية، وتتنامى الإحنُ والحزازاتُ العنصريـةُ، وتقوى من خلالها روح التسلط والاستبداد، وتتسع مجالات التبديد والفساد.

ومع إيغال العلماء في عزلتهم، وقد كانوا ورثة مدرسة الرسالة، كان من الطبيعي أن تضعف صلتهم بواقع المجتمع ومتغيراته والقدرة على التأثير في مسار سياساته وممارساته وتجديد مؤسساته، بل يظهر أثره على فكرهم ومناهج ثقافتهم، لتضعف لديهم ملكة التجديد والاجتهاد، وتتحوّل مدارس الخبرة والعمل إلى مدارس الرأي، ثم تتحوّل مدارس الرأي إلى مدارس النص، وتنتهي مدارس النص إلى مدارس الجمود والتقليد.

وبسبب معارضة العلماء والمثقفين وعزلهم من قبل الصفوة السياسية؛ تبنت فئات من تلك الصفوة العلمية المدرسية (الفلاسفة) البديل الفلسفي الناهل من الثقافات الوافدة، دون منهج شمولي سليم يدركُ خصائص الأمـة ومكونات رؤيتها وعقليتها ونفسيتها العقدية والحضارية، لينغمسوا وينغمس معهم شطر مهم من الفكر والجمهور الإسلامي من خلال الفلسفة وعلم الكلام والفرق والتصوف الأعجمي، في متاهات الإلهيات الميتافيزيقية الإغريقية وضلالها وانحرافاتها وتساؤلاتها وتهويماتها ومنطقها الصوري.

وفي الوقت نفسه انتهى العلماء والأمناء على تراث الرسالة إلى جمود نصية العلوم والمعارف الفقهية الشرعية، وتجلَّتْ ثالثةُ الأثافي في تمادي فساد الصفوة الحاكمـة وجهالتها واستبدادها، وبذلك فقدت الصفوة السياسية -بعزل

وعزلة رجال العلم والشريعة- سندَها وقاعدتَها، ولم يعد لها قاعدة فكرية ثقافية تدعمها وتبصِّرها، فغرقت الأمـة في انحطاط وجمود واستبداد، وأسلمت عامّتها نفسها إلىٰ صوفية فلسفية حلولية خرافية، أخمدت جلَّ ما بقي فيها من طاقـة حضارية، وأسلمتها إلىٰ غيبوبة وخنوع وسلبية.

كلّ ذلك أدّىٰ إلىٰ تعميق الإرهاب المادي بسبب استبداد قادة الأمة وصفوتها السياسية الحاكمـة، وقد كرَّسه عجز الأمة عن مواجهة المتغيرات، وعدم القدرة علىٰ التصدي للتحديات، فكان إرهابُ العسف والخسف، والقضاء علىٰ كل معارضة، السبيل الوحيد للصفوة الحاكمـة للمحافظة علىٰ الحكم، وتحقيق الضبط والبقاء.

أما الصفوة المثقفـة الشرعية فإنها -بتدهور قدراتها العلمية، وضعف ممارساتها العملية، وعزوفها عن معارف السنن والطبائع والوقائع - أصبحت أشبهَ ما تكون بمدرسة حِرَفِيَّة هامشية؛ إذ لم يبق لها علىٰ الأغلب من دور في المجتمع إلا توجيه شؤون الحياة الفرديـة، وتولي ما يتبعها من وظائف الفتوىٰ والقضاء وإمامة المساجد، وكان لابد لهم لأداء دورهم من اللجوء إلىٰ الإرهاب والترهيب الروحي، وإضفاء القداسات علىٰ المنطوقات وشحنها بالرموز وشوارد النصوص؛ حتىٰ ما عاد بالإمكان رفع أخمص ولا سحب خطوة إلا بدليل من نص وسابقة وفتوىٰ وإجازة.

آثار الانقسام وانهيار المؤسسات وتغييب البعد الجمعي:

وهكذا انتهىٰ الأمر بالأمـة إلىٰ انهيار المؤسسات وتسلط الصفوات، وأصبح المسلمُ فرداً يتناوشه -نفسياً ومادياً، ومن كل جانب- إرهابُ الاستبداد السياسي،

وخطابُ الترهيب الديني، لِيُدْفَعَ وتُدْفَعَ معه الأمـة وعامتها إلىٰ الانطواء والسلبية، ويسلب من فؤاده ومن خيال الأمة ما كان لها من دوافع الإتقان والعمران والحضارة.

وزاد الطين بلة أن صفوة الفكر في الأمـة لم تنتبه بشكل علمي فعال إلىٰ أن السبيل الناجح للإصلاح والتغيير إنما يأتي أولاً من داخل الأمـة والمجتمع، ويبدأ بجوهر الذات ومنبع الفكر والوجدان، وهو إعادة التربية، وبذلك ضلوا السبيل حين ظنوا أن سبيلَ الإصلاحِ هو سبيلُ المناجزةِ والصراعِ والعنفِ، مما زعزع استقرار الأمة، ومزّق نسيجها الاجتماعي، وزاد من تمكين أسباب المظالم والقهر والاستبداد والتمزق.(١)

هذه هي الصورة الكبرىٰ لمجرىٰ تاريخ الأمة وعلاقاته العكسية، الذي انتهىٰ بها إلىٰ ما هي عليه من خمود وسلبية وتمزق وهوان.

وعلىٰ الرغم من ذلك فإنه يجب ألا يغيب عن وعينا أنّ حال الأمـة في كثير من لحظات تاريخها –وحال كثير من بلدانها– لم يكن في السوء سواء، فهو إن تردىٰ في مصرٍ من الأمصار فقد يكون أفضل حالاً في مصرٍ آخر.

ففي الوقت الذي كانت قد خمدت فيه شعلة روح العرب، واندثر رسم المسلمين في بلاد الأندلس، كانت طاقـة الإسلام تتفتّح من جديد علىٰ يد قبائل الأتراك، وقد دخلت الإسلام بصلابتها وشجاعتها، وكانت مزودة

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. **العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر السياسي الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية**. دمشق وهرندن: دار الفكر والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٢م.

بروح الحرية والإباء، لترسِّخَ الإسلام في بلاد الأناضول، وتنبثقَ عنها براعمُ الدولة العثمانيـة.

وإذا تراجعت طاقـة الفكر والإبداع في الأمة بتراجع روح الحضارة فيها؛ فإن ذلك لم يمنع -حتى في عصور تفاقم الصراع والتمزق والانحطاط، بل ربما بسببه وما يمثله من التحدي- من ظهور عبقريات فكرية علمية وإصلاحية متميزة، منهم الغزالي وابن حزم وابن رشد وابن تيميه وابن خلدون في مجالات علوم الدين والشريعة والاجتماع، وكثير سواهم في مجالات العلوم الفلسفية والفيزيائية والصنائع وغيرها، فذلك أثـرٌ مما تبقّى من أصل قوة الدفع، ومن جوانب الاستجابة للتحديات ومقاومة الآفات والأمراض، ومما جبلت عليه النفوس من دافع الإصلاح والعمران، وهي ظواهر ما زلنا نلمس آثار وجودها حتى اليوم في روح الأمة، وفي تطلعاتها، وتفجرات غضبها، ومحاولات الإصلاح فيها.

لكن هذا لا يغير من طبيعة الصورة الكبرى لتاريخ الأمة ولمسيرتها الحضارية التي كانت تدفع التاريخ على جبهات مختلفة؛ بما يؤدي إلى ذبول دفع روح الإسلام، وإخماد طاقته، وتكدُّرِ صفاء الرؤية الكونية الحضارية وشموليتها، وبما يمزق صف الأمـة، ويمكِّن للفساد والاستبداد في كيانها، ويَسِم شعوبَها بالخمول والسلبية، ويحيل جموعَ أبنائها إلى قطعان، وتنعدم فيهم المبادرة، ولا يرجون إلا لقمـة العيش، وسلامة البدن.

وكان لا بدّ من أن تصحو الأمة من غيبوبتها، وينكشف لها عوارها ومدى ما أصاب روحها من الدمار، برغم مقاومـة روح الإسلام فيها على

مدىٰ القرون، وذلك حين برز لها أعداءٌ مناوئون، وأقوامٌ لهم قدراتٌ حضاريةٌ ومهاراتٌ ماديةٌ وتقنيـةٌ، تدعمها منهجيـةٌ علميةٌ، وطاقـةٌ نفسيةٌ إبداعيةٌ، فأخذ الغزاة والمستعمرون، وكذلك قوَّاد الأمة، يسومون شعوبها ألوانَ الخسف والظلم والهوان.

obeikan.com